ملامح فكرة العلامة اللغوية (الدال والمدلول) في التراث اللغوي العربي الإسلامي

د. هدى صلاح رشيد

المقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ...

فإنّ محاولة التأسيس لفكرة العلامة اللغوية لم تقم إلا في أوائل القرن العشرين على يد العالم الالسني الشهير فرديناند دي سوسير فظهرت كفكرة ذات أسس وقواعد راسخة نمت أصولها وترعرعت في ظل الدراسات اللسانية الحديثة، إلا إننا يمكن أن نجد لفكرة العلامة اللغوية (الدال والمدلول) أصولا وجذوراً واضحة في التراث اللغوي العربي، فهذا التراث لا يخلو من مثل تلك المسائل ،إذ اعتنى العرب بالعلاقة بين الدال والمدلول والذي كان يمتزج بضروب من المعارف المختلفة دون أن يحمل عنوانا مميزا له مستقلا في موضوعاته ومعاييره الخاصة.

يهدف هذا البحث في مقامه الأول إلى إبراز جهود علماء اللغة العربية والمعارف الإسلامية في فكرة العلامة اللغوية والعلاقة بين الدال والمدلول ، ومن ثم البرهنة على أصالة ذلك البحث عند العلماء العرب القدماء من مفسرين ولغويين ونحويين وبلاغيين والقول إن علم العلامات هو علم إسلامي ـ عربي له أسس راسخة في القدم ،وفي الوقت نفسه نشير إلى أن لعلم اللسانيات فضلا كبيرا في إرساء هذا العلم ووضع أصوله ، بعد أن كان يسير في كنف العلوم الأخرى.

ومن أجل تحقيق ذلك قسمت البحث على مبحثين :

المبحث الأول: مفهوم العلامة ومكوناتها.

المبحث الثاني: طبيعة العلاقة بين ركني العلامة (الدال والمدلول) بين البعدين الطبيعي والاعتباطي.

واتبعت في العرض منهجية علمية تقوم على عرض المسألة في الفكر اللساني الغربي ومن ثم البحث عن جذورها وملامحها في التراث اللغوي العربي .

وتوصل البحث إلى أن كثيراً من المعطيات الحديثة لفكرة العلامة توصل إليها علماء العرب والمعارف الإسلامية أثناء دراستهم للغة، مما جعلنا نعتقد أن علم العلامات علم قديم تناوله العلماء العرب القدماء من قبل ، وحديث باعتبار أن أصوله وأسسه ومنهج البحث فيه قد حددت في مطلع القرن العشرين.

ومن الله التوفيق

المبحث الأول
مفهوم العلامة ومكوناتها

احتلت العلامة اللغوية أو الدليل اللغوي بما تشتمل عليه من (دال ومدلول) مكان الصدارة ضمن المفاهيم التي طرحها سوسير في نظريته، يقول امبرتوايكو: ((لايمكن أن ننكر أنَّ التيار البنيوي هو الذي وفَّر في القرن العشرين الشروط الأساسية لدراسة العلامات))[١]. إذْ لم تكن نظرية العلامة بمكونيها (الدال والمدلول) نظرية جديدة على البحث اللساني، فقد((صاغ الرواقيون[٢]، ثنائية الصيغة والمعنى مميزين في اللغة بين الدال والمدلول))[٣]. ولكن في الوقت نفسه ،وعلى الرغم من حضور هذا التمييز في فكر هؤلاء، فإنَّ النصوص التي عرضها الرواقيون كانت صعبة التفسير، فـ((المدلول لم يكن صورة ذهنية بشكل كامل ،بل كان شيئاً ما في ذهن المتكلم والمستمع يقابل نطقاً معيناً في اللغة))[٤]. كما أنَّهم قد ميزوا داخل كل علامة لغوية بين ثلاثة مكونات هي[٥]:

Seimainon أو الدليل ،أو التعبير بصفته كيانا مادياً و Semainomenon أو الدليل، أو ما يتم التعبير عنه وهو ليس من طبيعة مادية. و Tynchanon الموضوع الذي تحيل عليه العلامة ،وهو من طبيعة مادية .

---

(١) العلامة:١١٥.

(٢) الرواقيون :وهم مجموعة من اللغويين الذي ينتمون إلى مدرسة فلسفية عرفت بالمدرسة الرواقية ظهرت في أثينا بعد أرسطو أسسها زينون(نحو ٣٠٠ق.م) وعمل هؤلاء في المجالات اللغوية والفلسفية التي عمل بها أرسطو ،وكان لهم منهجهم وأفكارهم الخاصة، وقد أحرز علم اللغة على أيديهم منزلة ومكانة وعولجت على أيديهم مسائل لغوية متنوعة (ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب: ٣٦- ٣٧).

(٣) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب: ٣٧.

(٤) المصدر نفسه:٣٧.

(٥) ينظر: المصدر نفسه:٥١.

وعلى هذا ((تكون العلامات معروفة منذ مدة طويلة، وقد كان معروفاً أيضاً أنَّ العلامات اللغوية هي ربط بين تصور وصورة صوتية))[١]. وتميّز سوسير في علم العلامة أو نظرية العلامة يكمن في أنّه ((نهض بكل المفاهيم الحالية للعلامات في تأليف معين إلى مستوى أعلى))[٢]. ففي الوقت الذي فهم فيه سوسير العلامة على أنَّها حصيلة الاتحاد بين ثنائية الدال والمدلول[٣] ،إلاّ أنَّه حاول أن يخرج عن النطاق الضيق للعلامة- الذي حُددتْ به من قبل-وحقاً تمكن من ذلك، فأطلق مفهوم(العلامة) أو (الدليل) على ((معنى جديد ينتظم مجموع شيئين متلازمين ،هما(الفكرة) أو ما يشار إليه عادة بالمدلول، والصورة الذهنية للأصوات أو ما يعرف عند الآخرين بالدال))[٤]. في حين احتفظ بمصطلح (دليل) منتهياً إلى عدم وجود مصطلح بديل له، فقال: ((أما Sign (أي دليل) فهو مصطلح ،إن نحن رضينا به فلأننا لم نجد له بديلاً نعوضه بهِ فيما هو مستعمل من الكلام))[٥]. فالذي يميز مفهوم(الدليل) عنده أنَّه يعطي كلاً من جزأيه بُعداً نفسياً ،فيقول: ((فالدليل إذاً كيان نفسي ذو وجهين يمكن تمثيله بالشكل الآتي :

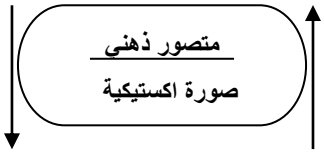

وهذان العنصران ملتحمان التحاماً شديداً ويستدعي وجود أحدهما وجود الآخر))[٦].

(١) مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي: ١١٧.
(٢) مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي: ١١٧.
(٣) ينظر :دروس في الالسنية العامة: ١١٠-١١١.
(٤) كتاب محاضرات في علم اللغة لفرديناد دي سوسير وموقعه في اثار الدارسين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،ج٢٩، ١٩٧٢م: ٢٣٤.
(٥) دروس في الألسنية العامة: ١١١.
(٦) المصدر نفسه: ١١٠-١١١.

وهذا التفسير النفسي (للدليل) وما يتكون منه (الدال والمدلول) ربما يكون من رواسب النزعة النفسية التي كانت سائدة في عصره[عصر سوسير]، وأنهَّ لم يتخلص من(النظرية الاسمية) التي كان أرسطو يفسر بها اللغة أسماء لأشياء موجودة)[١].

وفي هذا الموضع الذي حدده سوسير يتدخل التجديد تدخلاً حاسماً،((وهو تجديد مصطلحيّ ومفهوميّ في الوقت نفسه ،يتمثل في أن يستبدل بمصطلحي(متصور ذهني وصورة أوكستيكية) مصطلحي الدال والمدلول على التوالي ،وبذلك فقد الوجهان كل ما بقي لهما من سمة مادية حتى لو أنَّ سوسير كان يلح... على أنَّ المادة الفيزيائية للصوت ليست هي المقصودة ،لكان المقصود هو الصوت بوصفه بصمة نفسية))[٢].

فالعلامة أو الدليل اللغوي عند سوسير مظهر ذو جانبين، هو لا يجمع بين اسم وشيء بل بين تصور وصورة((ولايقصد بالصورة الصوتية هنا مادة الصوت نفسها كحدث فيزيائي بحت وإنّما الأثر النفسي والانطباع الذي يتولد في ذهن السامع حالما تنتقل إليه الكلمة من خلال حاسة السمع))[٣]. وهذا ما يعلن عنه سوسير صراحة، فيقول: ((إن الدليل اللغوي لايجمع بين شيء واسم بل بين متصور وصورة أكوستيكية وليست الصورة الأكوستيكية هي الصوت المادي أي ذلك الأمر الفيزيائي المحض، بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت، أي الصورة التي تصورها لنا حواسنا، وهي صورة حسية ، وإن صادف أن نعتناها فقلنا إنَّها (مادية) فبالمعنى الذي ذكرناه فقط ،وللمقابلة بينهما وبين الطرف الآخر من عملية الترابط، أي المتصور الذهني، وهو غالباً ما يكون أبعد

(١) ينظر: مباحث في علم اللغة واللسانيات :٢٣٢.

(٢) البحث عن فردينان دي سوسير: ٧٩-٨٠.

(٣) النظرية اللغوية عند فردينان دي سوسير، مجلة الدراسات اللغوية ،مج ٣، ع٢، ٢٠٠١، ١١٣،وينظر: تاريخ علم اللغة الحديث:٧٢.

في التجريد))[١]. وكلام سوسير هنا عن ثنائية (الدال والمدلول) كلاً على حِدَة لايعني أنَّه يفصل بينهما أو يدعو إلى استقلالية كل عنصر منهما عن الآخر ،بل هما كيان كلي مزدوج ذو جانبين[٢]. ومصداقاً لذلك نراه يشبه الارتباط الحاصل بين الدال والمدلول بسطحي الورقة، فيقول: ((ويمكننا كذلك أن نشبه اللغة بورقة يمثل الفكر وجهها والصوت قفاها ، فلا نستطيع أن نقطع الوجه بدون أن نقطع في نفس الوقت القفا وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة، فلا نستطيع فيها عزل الصوت عن الفكر ولا عزل الفكر عن الصوت، وبلوغ ذلك يقتضي منّا القيام بعملية ذهنية تجريدية من شأنها أن تفضي بنا إلى طرائق الموضوع من جهة علم النفس البحت أو علم الفونولوجيا البحت))[٣]. إن التمييز الإجرائي الذي اختطه سوسير منهجاً لدراسة العلامة (الدال والمدلول) قد يثير إشكالية أخرى لم يهدف إليها ،إذْ قد يفهم منها أنَّ المراد عزل اللغة عن الواقع، وهذا ما لم يسعَ إليه فهو دائماً يؤكد الوظيفة الاجتماعية والتواصلية للغة بِعَدِّهِ الغرض من وجودها[٤]، لكنه أقام هذا التمييز حرصاً على عزل اللغة عن العناصر الخارجية بهدف دراسة اللغة دراسة علمية كنظام مستقل. وهكذا تأخذ العلامة (الدليل اللغوي) على يد سوسير بعداً تأسيسياً صارماً لتجد تطوراً آخر على يد العلماء من بعده ،فيتناولون فهم العلامة فهماً مغايراً عن مفهوم سوسير. فبيرس مثلاً يعرف العلامة على أنَّها((شيء يُسند ،من حيثية ما، إلى علامة أُخرى، هي موضوعه ،بصورة تجعله يربط بهذا الموضوع شيئاً ثالثاً هو التعبير عنه، وهذا بدوره يربط بهذا

(١) دروس في الألسنية العامة:١١٠.
(٢) ينظر: البحث عن فردينان دي سوسير: ٨١، والنظرية اللغوية عند فردينان دي سوسير:١١٤،ومناهج البحث في اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي:١١٨.
(٣) دروس في الألسنية العامة:١٧٤.
(٤) دروس في الألسنية العامة:٣٠.

الموضوع شيئاً رابعاً ،وهكذا إلى ما لا نهاية له))[١]. وهكذا وسع بيرس دائرة العلامة إلى خارج دائرة اللغة، وأعطاها تحديداً أشمل وأكثر عموميّة بجعلها كياناً ثلاثي المبنى[٢]. ومن هنا يأتي الفرق بينه وبين سوسير ؛ إذْ إنّه يضمن العلامة(الدليل) ، كما يقول تشاندلر((مصطلحاً ثالثاً يتخطى وجوده حدود الإشارة ،وأعني بذلك الموجودة(أو المرجع إليه) وكما رأينا ليس المدلول عند سوسير مرجعاً إليه خارجياً، إنَّما ممثلية عقلية مجردة، ومع إنَّ الموجودة عند بيرس لاتشير فقط إلى الأشياء المحسوسة ... بل يمكن أن تكون مفاهيم مجردة ،وكيانات خيالية،... وهذا ما لا نجده مباشرة في أنموذج سوسور))[٣]. وقد استبدل بيرس مصطلحي (الدال والمدلول) بـ(الممثل والتأويل)[٤]، ولم يكتف بذلك، فوسع من دائرة العلامة ليصبح تقسيمها ثلاثياً، ووُجِدَ صداه عند أوجدن وريتشارد في مثلثهما الدلالي لتصبح العلامة متكونة من (رمز ، فكرة ، مرجع)[٥].

فالرمز يقابل الدال

الفكرة تقابل المدلول

المرجع وهذا لا وجود له عند سوسير.

ويمكن تمثيل ذلك بالمثلث الاتي:

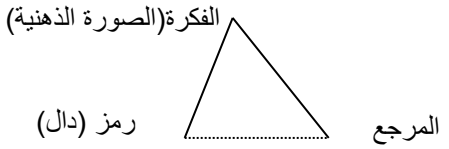

(١) تيارات في السيميائية:١٧.

(٢) –ينظر: البحث اللساني الحديث في العراق:٢٥٧.

(٣) –أسس السيميائية :٧٥.

(٤) –ينظر: أسس السيميائية: ٦٩–٧٢.

(٥) –ينظر :تيارات في السيميائية: ١٨.

فالعلاقة بين الرمز والمرجع علاقة غير معلله وغير مباشرة ،ولاتتم إلاّ من خلال جانبي المثلث. أما العلاقة بين الرمز والفكرة فهي علاقة سببية ،أي إنَّ الفكرة هي العِلّة في وجود الرمز[١].

كما حاول هيلمسليف استبدال ركني العلامة(الدال والمدلول) مقترحاً تسميتها بـ(التعبير والمحتوى)،ثم يفترض بذلك((مستويين: مستوى المضمون ومستوى التعبير، وداخل هذين المستويين (التعبير والمضمون) يفرق هلمسليف في اطار أنموذجه الثنائي للعلامة مرة أخرى- بمفهوم سوسير بين الشكل والمادة- وينتج عن ذلك أربع طبقات يلحق بكل منها علم))[٢]، وهي كآلاتي:

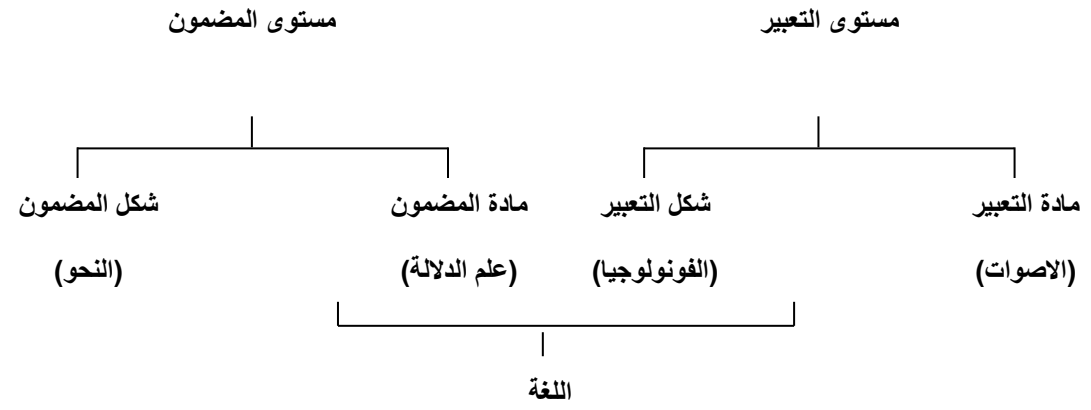

أمّا في التراث اللساني العربي القديم، فقد كان هذا التراث خزيناً علمياً وثقافياً ظهر في شكل نظام من العلامات الدالة. فقد تبلور علم العلامات على يد علماء الأصول والتفسير والمنطق واللغة والبلاغة، فكان أول انطلاق لهم من القران الكريم بغية اكتشاف أساليبه التي أعجزت البلغاء، ولاسيما إنَّ القرآن الكريم قد أرشدهم في مواضع

(١) -ينظر:علم السيمياء في التراث العربي،مجلة التراث العربي -دمشق،ع ٩١،السنة ٢٣، ٢٠٠٣: ٧٤.
(٢) -تاريخ علم اللغة الحديث: ١٠٧.

عديدة إلى تدبر العلامات، قال تعالى:﴿ **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[النحل/١٦] ،فدعاهم إلى بحث البنية الدلالية للألفاظ من أجل اكتشاف كنهها ومفهومها.

فالعرب من أصول ألفاظهم الفعل(دلّ) ،وكانت هذهِ اللفظة ترد عندهم في مواضع كثيرة، فابن فارس يقول ـ موضحاً المفهوم اللغوي للكلمة:((الدال واللام أصل يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها والدليل الأمارة في الشيء))[١].

وهذا يدل على أنَّهم فهموا الدليل على أنَّه العلامة التي تعرف بها الأشياء أو يستدل عليها من خلالها.

كما أنَّهم استعملوا مصطلح العلامة أيضاً بالمفهوم نفسه الذي قصده سوسير ،يقول أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) :((وعلامة الشيء ما يعرف به المعلم له ومن شاركه في معرفته دون كل واحد كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه فيكون دلالة لك دون غيرك ولايمكن أن يستدل به عليه))[٢].

فهنا يجمع أبو هلال بين مصطلحي الدلالة والعلامة، وذلك يشمل ضمناً الأدلة اللغوية بوصفها علامات يعرف بها الأشياء المعلم لها.

وتحدث ابن سينا(ت٤٢٨هـ) وبشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً عن مفهوم (الدلالة)،فقال: ((معنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى، فتعرف أنَّ هذا المسموع لهذا المفهوم ،فكلما أورده الحس على النفس التفتَّ إلى معناه))[٣].

---

(١) مقاييس اللغة :٢/٢٥٩.

(٢) الفروق:٦٢.

(٣) الشفاء:٤.

فالأشياء الموجودة في العالم الخارجي لها وجود في النفس ،فبين، الصوت والمعنى– كما يفهم من كلامه–علاقة استدعت كلاً منهما الآخر، وهناك ربط بين المسموع والمنطوق. وهو بهذا يتفق مع ما وجدناه عند سوسير ،فالعلامة عند ابن سينا ثنائية متآلفة من مسموع ومفهوم، وهذا ما أكده سوسير حين ذهب إلى أنَّ الدال صورة صوتية والمدلول مفهوم يتجلى في النفس ،وعدّهما كياناً ثنائياً يتألف من عنصرين ذوي طبيعة نفسية كما سبق أن استعرضنا رأيه. إلاَّ أنَّ المسألة أخذت بُعداً أكثر تفصيلاً عند الرازي، وهو يعرض لنا مفهوم الدلالة، فيقول: ((للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا ما في الأعيان، ولهذا السبب يُقال :الألفاظ تدل على المعاني ،لأن المعاني هي التي عناها المتكلم ،وهي أمور ذهنية والدليل على ما ذكرناه أنا إذا رأينا جسماً من البعد وظنناه صخراً قلنا إنه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظنناه طيراً قلنا إنّه طير ،فإذا ازداد القرب علمنا أنَّه إنسان فقلنا إنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدلّ على أنَّ مدلول الألفاظ هو الصورة الذهنية لا الأعيان الخارجية))[١]. فالمدلول هنا هو الصورة الذهنية التي تحدد(الدال) ونجد انطلاقة الرازي في تحديد مكونات(الدلالة) من الفاعل المتكلم والدلالة، تبدأ من الشيء الخارجي ثم المتصور الذهني، في حين هي عند سوسير تنطلق من (الصورة الأوكستيكية) ثم المدلول. لذا يحدُّ الرازي المعنى فيقول، هو((اسم للصورة الذهنية لا للموجودات الخارجية، لأنَّ المعنى عبارة عن الشيء الذي عناه العاني وقصده القاصد، وذاك بالذات هو الأمور الذهنية وبالعرض الأشياء الخارجية، فإذا قيل: إن القائل أراد بهذا اللفظ هذا المعنى ،فالمراد أنَّه قصد بذكر ذلك اللفظ تعريف ذلك الأمر المتصور))[٢].

(١) تفسير الفخر الرزاي:١/٣١.
(٢) المصدر نفسه:١/ ٣٢.

ومن هنا تظهر دقة الرازي في عرض أركان الدلالة، إذْ لم يحدد سوسير المعنى وأهميته في الدلالة، حتى إن قلنا إنه شيء نستدعيه بين الدال والمدلول ،فسوف تعترض افتراضنا عبارة سوسير ((إنَّ الدليل اللغوي لايجمع بين شيء واسم، وإنَّما بين متصور ذهني وصورة أوكستيكية ، وهذهِ الأخيرة ليست هي الصوت المادي(الفيزيائي)،وإنَّما ذلك الأثر النفسي لهذا الصوت، أي الصورة التي تصورها لنا حواسنا (صورة حسية))[١]. فسوسير لم يعطِ مجالاً لتفصيل المعنى في بحثه الدلالي ،فالعلامة عنده((ليست شكلاً ذا معنى، إنَّها وحدة مركبة ناتجة عن فرض التركيب على نوعين من المادة بوساطة العلاقة المتباينة للنظام اللغوي))[٢]. ويمضي الرازي في تحديد العلاقة بين(الدال والمدلول) ،فيقول: ((لاشك أنَّ الكتابة دالة على الألفاظ ، ولاشك أنَّ الألفاظ دالة على الصورة الذهنية))[٣].وتبدو المفاهيم التي قدَّمها الرازي أكثر وضوحاً وتفصيلاً من تلك التي حددها سوسير، على الرغم من التقارب الفكري بينهما ،فإنَّ مصطلحات سوسير تبدو أكثر تعقيداً، فمصطلح (الصورة الأوكستيكية) الذي قدّمه سوسير كان سيبقى غامضاً لولا أنَّه أشار إلى أنَّه يعني به(الدال) فرفع بذلك اللبس عنه[٤]. أمّا عن نوع التقسيم الذي اعتمد عليه الرازي للعلامة، وهل اختار التقسيم الثنائي أو أنَّه سلك سبيل التقسيم الثلاثي؟ وهذا ما يمكننا الإجابة عنه من خلال عرض المفاهيم التي فرَّق الرازي بينها وهي (الاسم والمسمى والتسمية) ،فقال في قوله تعالى:﴿**وإني سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾[آل عمران/٣٦]، قال معناه:((وإني سميتها بهذا اللفظ، أي جعلت هذا اللفظ اسماً لها، وهذا يدل على أنَّ الاسم والمسمّى والتسمية أمور

(١) دروس في الألسنية العامة:١١٠.
(٢) اللغة واللغويات:١٩٥.
(٣) تفسير الفخر الرازي:١٦١/١.
(٤) ينظر: دروس في الألسنية العامة:١١١.

ثلاثة متغايرة))[١]. فهو هنا يذهب إلى أنَّ العلامة مكونة من ثلاثة عناصر، هي : الدال (الاسم)،والمدلول(المسمى)، والمرجع(التسمية) . أي إنَّه يعتمد التقسيم الثلاثي للعلامة، الذي كان قد شكل ـ في الفكر الغربي ـ الفكرة الأساسية للمثلث الدلالي عند اوجدن وريتشارد كما عرضنا ذلك مفصلاً. ونجد المسألة نفسها تعرض وبشكل آخر عند حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) حين قال: ((كل شيء له وجود خارج الذهن فإنَّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك ،أقام اللفظ المعبر به هيأة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ لمن لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها، صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيئات الألفاظ ،فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضاً وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليه))[٢]. فالقرطاجني يقيم علاقة بين الدلالات الصوتية والرموز الكتابية، على أساس الترابط الدلالي، فالرموز الكتابية تجسد هيأة الألفاظ، وتستدعي هذهِ الهيئات– بعد قيامها في الأفهام ـ الصورة الذهنية. كما أنّه يتبنى التقسيم الثلاثي للعلامة، فيقول:((قد تبين أنَّ المعاني لها حقائق موجودة في الأعيان ،ولها صور موجودة في الأذهان، ولها من جهة ما يدل على تلك الصورة من الألفاظ وجود في الأفهام والأذهان))[٣].

فالعلامة تدرك من خلال ثلاثة جوانب عند حازم القرطاجني وتأخذ المسألة بعداً فلسفياً دينياً عند ابن القيم، وهو يعرض لها في رده على المتكلمين الذين يساوون بين

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣٣/٧.
(٢) منهاج البلغاء: ١٨–١٩.
(٣) منهاج البلغاء:١٩.

الاسم والمسمى، فاسم الله هو ذاته، فينطلق راداً عليهم مستعيناً بمثال، وهو لفظ(زيد)،فيقول: ((اللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال مثلاً له حقيقة متميزة متحصلة فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه، لأنّه شيء موجود في اللسان مسموع بالآذان. فاللفظ المؤلف من(همزة الوصل، والسين، والميم) عبارة عن اللفظ المؤلف من (الزاي، والياء، والدال مثلاً) واللفظ المؤلف من (الزاي والياء والدال ،عبارة عن الشخص الموجود في الأعيان والأذهان) وهو المسمى والمعنى، واللفظ الدال عليه (الذي :هو: الزاي والياء والدال) هو الاسم.

وهذا اللفظ أيضاً قد صار مسمى من حيث كان لفظ الهمزة والسين والميم عبارة عنه. فقد بان لك أنَّ الاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى، ولهذا تقول: سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول حليته بهذه الحلية، والحلية غير المحلى. فكذلك الاسم غير المسمى))[١].

وهكذا يوضح ابن القيم أركان العلامة بمثال عملي يوجز من خلاله وجهة نظره بالمصطلحات الفلسفية نفسها التي وجدناها عند الرازي.

فهو يذهب إلى أنَّ (الاسم غير المسمى) أي (الدال غير المدلول) ، ففي مثاله تكون لفظة(زيد)هي الدال له لفظ يدل عليه هو كلمة(اسم) ومدلول هو(الشخص الموجود في الاعيان) وهو(المسمى). وبهذا تكون لفظة(زيد) صورة صوتية للدليل، أمّا الشخص المسمى الموجود فهو المدلول.

(١) بدائع الفوائد:١/ ١٤-١٥.

كما أنَّه يحدد بشكل واضح مفهوم(الدليل)،الذي أطلق عليه التسمية أو التحلية، بقوله:((سميته بهذا الاسم، أو حليته بهذهِ الحلية))[١]. فتكون (التسمية أو التحلية) جامعة بين الدال والمدلول.

ثم يقول مثبتاً وجهة نظره، مدركاً لمفهوم العلامة: ((إنك تقول سميت زيداً بهذا الاسم كما تقول علَّمته بهذه العلامة ... وما قال نحوي قط ولا أعرابي إنَّ الاسم هو المسمى))[٢].

ثم يستشهد بقول العرب: ((مسمى هذا الاسم كذا، وهذا الرجل مسمى زيد، ولايقولون: هذا الرجل اسم زيد، ويقولون: بسم الله ،ولايقولون: مسمى الله))[٣].

ثم يبين مفهوم التسمية بأنَّها((عبارة عن فعل المسمى ووضعه الحلية على المحلى))[٤] وهو لايتناقض مع ما أقرّه سوسير ، سواء في حقيقة إدراكه للعلامة، أم في التقسيم الذي اختاره.

وهذا ما أفرزته الدراسات اللسانية التراثية العربية، فقد وجدناه يقف جنباً إلى جنب مع الحقائق التي أقرها سوسير بشأن إدراك مفهوم العلامة وحقيقتها ولايختلف عنه إلاَّ في المصطلحات المستعملة ،التي تتباين حيناً ،وتتطابق في أحيان كثيرة، إلاّ أنَّها لا تتعارض مع الحقائق المدركة.

---

(١) بدائع الفوائد: ١/١٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) بدائع الفوائد ١/٥١.

المبحث الثاني
طبيعة العلاقة بين ركني العلامة(الدال والمدلول) بين البعدين الاعتباطي والطبيعي.

لقد شغلت مسألة طبيعة العلاقة بين(الدال والمدلول) علماء اللغة والفلاسفة والمفكرين، إذْ أصبحت حجر الزاوية في علم الدلالة؛ فأخذوا يبحثون عن طبيعة العلاقة بين ركني العلامة، واضعين احتمالين للإجابة عن السؤال الماثل أمام أنظارهم، يتمثل بالآتي:

ماهي طبيعة العلاقة بين ركني العلامة(الصورة والصوت)؟ هل هي اعتباطية عشوائية(غير مسوغة)؟ أم أنَّها طبيعية (محاكية لأصوات الموجودات)؟

اولاً : العلاقة الاعتباطية:

لقد كان تفسير العلاقة الحاصلة بين طرفي العلامة اللغوية على أساس الاعتباطية أو العشوائية غالباً مايُركن إليه عندما يحتدم الجدل ليصل إلى حد الصراع دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة حتى بدت((الجزافية هي الصفة الدائمة للعلامة اللغوية ولاتوجد خاصية للصورة الصوتية سببتها خواص التصور أو صوَّرتها))[١].

وقد برزت هذه الفكرة في التراث الغربي منذ عهد افلاطون ،وهو يناقش الفكرة في عرضه لها بين رأيين أحدهما يقول بالاعتباطية، والآخر يدَّعي المحاكاة الطبيعية، فـ((في مؤلفة الحورايّ كراتيلوس يدافع كراتيلوس عن العلاقة الطبيعية بين الكلمات وما تمثّل ،لكنَّ هوموجينيس يعلن أن لا أحد يستطيع إقناعه: بأنَّ هناك شيئاً آخر غير الاصطلاح والاتفاق يحددان صحّة الأسماء ... ليس من اسم ينتمي إلى شيء معين

(١) –القضايا الاساسية في علم اللغة :٥٨.

انتماءً طبيعياً))[١]. ويؤكد أرسطو مفهوم الاعتباطية ،فيقول: ((إنَّه لايمكن أن يوجد ارتباط طبيعي بين الصوت،في أي لغة،والأشياء المدلول عليها))[٢].

فمبدأ الاعتباطية كان مقراً وبشكل واضح قبل عهد سوسير، بل إن ظهوره اللافت للنظر كان عند ويتني الذي يقول: ((إن الدلالة Sign ترتبط بالمفهوم الذي تدل عليه بالاصطلاح Conventional والارتباط بينهما ذهني فقط.

لو كان الارتباط طبيعياً أو داخلياً أو لازماً لوجب أن يتبع كل تغير في المفهوم تغير في الدليل))[٣].

فالاعتباطية حقيقة معلنة قبل سوسير ،ونسبت إليه لأنَّه شدد عليها وكررها في سياق نظريته ،معلناً: (إنَّ الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي أو بعبارة أخرى...إنَّ الدليل اللغوي اعتباطي))[٤].

ولكي يعطي للتصور الاعتباطي بُعداً علمياً فإنَّه يمثله بكلمة (أخت) مثال على الاختلاف الحاصل بين اللغات، فيقول: ((وهكذا فإنّ المتصور الذهني(أخت) لاتربطه أية علاقة داخلية بتتابع الأصوات التالية: الهمزة والضمة والخاء والتاء والتنوين الذي يقوم له دالاً ،ومن الممكن أن تمثله أية مجموعة أخرى من الأصوات، ويؤيد ذلك ما يوجد بين اللغات من فوارق في تسمية الأشياء بل اختلاف اللغات نفسه))[٥].

فمبدأ الاعتباطية ـ عند سوسير ـ مبدأ جذري ذو أهمية عالية لايتم على مستوى العلاقة بين الصوت والمعنى، إنَّما على مستوى الشكل.

---

(١) أسس السيميائية :٥٩.
(٢) المصر نفسه.
(٣) علم اللسان العربي:٣٩٤.
(٤) دروس في الالسنية العامة:١١١-١١٢.
(٥) دروس في الألسنية العامة:١١٢.

فالاعتباطية تدعي((أنَّ الربط بين التصور والصورة الصوتية ليس مسبباً))[١] ، وهذهِ العلاقة غير المسببة ((هي التي تحميها من التغيرات المفاجئة والعنيفة))[٢].

وسوسير لايعني بالاعتباطية هنا، الاعتباطية المطلقة،أي أحقية كل شخص أن يطلق ما يحلو له من الدوال على المدلولات ،فهذا ما لم يدعُ إليه سوسير،بل إنَّه كان يقصد الاعتباطية المقيدة، فقال:((ثم إنّ كلمة اعتباطي تستوجب كذلك إبداء ملاحظة ؛فلا ينبغي أن يفهم منها أنَّ الدال خاضع لمحض اختيار المتكلم..إنَّما تعني أنَّ الدال أمر غير مبرر[كذا:غير مسوّغ] أي إنَّه اعتباطي بالنسبة إلى المدلول وليس له بهِ أي رابط طبيعي موجود في الواقع))[٣].

وهذا يعني أنَّ الاعتباطية تكون في الابتداء،وتفقد صفة الاعتباطية مؤخراً ،يقول ليفي شتراوس:((تكون الإشارة اعتباطية قبل دخولها الاستعمال،لكنّها تكف عن كونها كذلك بعد ذلك ؛لايمكن تغيير الإشارة اعتباطياً بعد أن تدخل الوجود التأريخي))[٤].

وبمعنى آخر يمكن القول إنَّ اعتباطية الدليل اللغوي تعد خاصية مؤقتة ((إذْ إنَّه طالما خُلق الرمز فإنَّ ما يستثيره يصبح شيئاً محدداً دقيقاً نتيجة للبنية الطبيعية للذهن من ناحية ولعلاقته بمجموعة الرموز الأخرى... من ناحية أخرى))[٥].

(١) مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي: ١١٩.
(٢) في البنيوية والالسنية، مجلة اقلام ،ع٩، ١٩٨٣م: ٧٣.
(٣) دروس في الالسنية العامة:١١٣.
(٤) أسس السيميائية:٦٦.
(٥) علم الاسلوب والنظرية البنائية:٣٥٥.

والاعتباطية ليست بحكم العادة فقط بل هي أيضاً ربط ملازم لكل أعضاء الجماعة اللغوية المعينة بين الدال والمدلول[١]، وهو ما لم يفهمه الكثيرون فأسيء فهم ما قصده سوسير.

أمَّا في التراث اللساني العربي القديم ،فلم يكن العلماء العرب بمعزل عن مناقشة هذه الفكرة ،فلم يغضوا الطرف عنها، ولاسيما إنَّهم يبحثون في مسألة علاقة(الدال بالمدلول)،لذا لغرض التأصيل((نذكر أنَّ لاعتباطية العلامة جذورها في اللغة العربية، ولاشك في أنَّه يبين للدارس من هذا الجيل وغيره درجة الأهمية لهذا الغبار الذي يثيره بعض المبهورين جداً باللسانيات المعاصرة في جوانب معينة كثيرة على حساب تأصيلها البحثي المدقق عند العرب، وكأنّها فتح علمي لاصلة للعقل العربي في الاهتداء لآليته وأجهزته))[٢].

لقد كان للفكر اللساني العربي حضور متميز في بحث المسألة، فـ((لم يَفتِ اللغويين العرب البحث عن علاقة الأصوات بالدلالات، وهي علاقة اعتباطية بتعبير سوسير، بيد أنَّ النظر في أبحاث القدماء يكشف أنَّ سوسير لم يأتِ بفتح جديد، فالاعتباطية هي مما تحدث عنه اللغويون العرب))[٣].

ومصداق حديثنا تفصح عنه النصوص المنقولة عنهم، فالجاحظ يسجل أسبقية في الكشف عن الاعتباطية ، فيقول:((وما تعرف دمشق إلاَّ بدمشق ولا فلسطين إلاَّ بفلسطين))[٤]، فإطلاق الاسم على المسمى فعل اعتباطي غير مسوغ.

---

(١) ينظر: تاريخ علم اللغة الحديث:٧٢.

(٢) مدخل إلى المدارس اللسانية:٦٠.

(٣) للسانيات في الثقافة العربية المعاصرة:١٤٥.

(٤) الحيوان:١/ ٤٠٨.

وهذا ما عبَّر عنه الاسفراييني (ت٤٠٦هـ) على نحو أكثر وضوحاً، حين قال: ((إنَّ الأسماء لا تدل على مدلولها لذاتها؛ إذْ لا مناسبة بين الاسم والمسمى ،الثوب: يسمى في لغة العرب باسم ،وفي لغة العجم باسم، ولو سمّي الثوب فرساً والفرس ثوباً لما كان ذلك مستحيلاً)) (١) .

ويعرض ابن سينا مثالاً جدلياً يبين فيه الاعتباطية، فالمعنى في العالم الخارجي، واحد إلاّ أنَّ اللفظ الذي يمثله مختلف باختلاف اللغات ،يقول: ((فالمعاني في النفوس واحدة، ولا تختلف من قوم لآخر، ولكن الوسائل والرموز مختلفة بين الأُمم في لغاتها المتباينة الدّالات، مع أنَّ المدلولات في العالم الخارجي، وفي المجردات المعروفة واحدة.

وأما دالات ما في النفس على الأمور فدالات لاتختلف ،لا الدال ولا المدلول عليه، كما في الدلالة بين اللفظ والأثر النفسي، فإنَّ المدلول عليه وإن كان غير مختلف فإنَّ الدّال مختلف)) (٢).

وما يقوله ابن سينا هنا فيما يتعلق بنفي العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، هو ما ذكره سوسير، وهو يمثل للاعتباطية بكلمة(أخت) التي تختلف من لغة إلى أخرى على رغم من أنَّ معناها في النفوس واحد، كما سبق لنا أن عرضنا له.

كما يشاطرهما السيوطي في عرض الفكرة نفسها، وهو ينقل عن الجمهور قولهم: ((لو أنَّ اللفظ دل بذاته على معناه لفهم كل واحد منهم كل اللغات)) (٣).

---

(١) المزهر:١/ ٤٧.
(٢) الشفاء: ٥.
(٣) المزهر:١/ ١٦.

وبهذا فالقدماء توصلوا من قبل إلى ما توصل إليه سوسير ،وإنْ كان سوسير قد استعمل لفظة أكثر دقة وإفصاحاً وهي(الاعتباطية)، مستدلاً بمسألة عرضت عنده كما عرضت عند العرب القدماء في أكثر من مناسبة، وهي مسألة (اختلاف اللغات).

كما يتحدث عبدالقاهر عن فكرة الاعتباطية، وهو يتناول مسألة (نظم الحروف)، فيقول: ((فلو أنَّ واضع اللغة قد قال(ربض) مكان(ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد))[١].

يفهم من كلامه هنا أنَّ الدلالة الوضعية كانت من متكلم اللغة اعتباطية، بدليل قوله (لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد) أي فساد المعنى الحاصل في الذهن.

وهو هنا يلتقي مع ما أقرّه الفكر الغربي الحديث بشأن الاعتباطية، يقول روبرت هول: ((إنَّ معنى كل صيغة لغوية اعتباطي تماماً ،وليس هناك أي ارتباط ضمني ولا أية علاقة تلازمية بين أي صوت لغوي وما يدل عليه... إنَّ معنى الكلمة يقرر عن طريق المتكلمين باللغة ،وإنَّ استعمالنا للكلمات في معانيها ليس أكثر من عادة نتلقاها عمن سبقنا)) [٢]. وكان الرازي يميل إلى القول بالاعتباطية، إذ يقول: ((دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية حقيقية)) [٣].

ثم يعرض المسألة عرضاً مفصلاً ينفي- من خلال عرضه- العلاقة الطبيعية بين(الدال والمدلول) مستدلاً بمثال يحاكي العقل والمنطق، وباسلوب فلسفي ،يقول: ((اللفظ المفرد لايفيد البتة مسماه ،لأنَّه ما لم يعلم كون تلك اللفظة موضوعة لذلك المعنى لم يُفد شيئاً، لكن العلم بكونها موضوعة لذلك المعنى علم بنسبة مخصوصة

(١) دلائل الاعجاز:٤٢.

(٢) Introductory tolinguistics:٢٢٩. .

(٣) تفسير الفخر الرازي:١/٣٠.

بين ذلك اللفظ وذلك المعنى، والعلم بالنسبة المخصوصة بين أمرين مسبوقة بكل واحد منهما فلو كان العلم بذلك المعنى مستفاداً من ذلك اللفظ لزم الدّور، وهو مُحال ،وأجيب عنه بأنَّه يحتمل أنَّه إذا استقر في الخيال مقارنة بين اللفظ المعين والمعنى المعين فعند حصول الشعور باللفظ ينتقل الخيال إلى المعنى، وحينئذ يندفع الدور)) [١].

ثانياً : العلاقة الطبيعية:

ومن جهة أخرى من البحث في علاقة الدال بالمدلول ،نجد نفراً من الباحثين ينفي العلاقة الاعتباطية، ويلح على مسألة وجود الترابط الطبيعي بين(الدال والمدلول).

فسقراط يرفض الاعتباطية المطلقة ،بل إنّه ينحو منحى نستشف من خلاله ميله إلى القول بمبدأ محاكاة الطبيعة وعدم الإقرار بالاصطلاح[٢]،وذلك ((في محاورة كراتيلوس مفادها أنَّ الخوض في مثل هذه المسالة فيه مشقة وأنَّ هناك نوعاً من الأسماء تدل وتشهد على أنَّها لم تتم اعتباطاً ،وأنّ لها أصلاً من الطبيعة، ومن الأسماء ما أطلق بالمواضعة والاصطلاح، وكثيراً ما يحدِث تداول الألفاظ إلفة بينهما وبين الذهن)) [٣]. ويقول أوتوماس الاكويني((إنَّ الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء)) [٤]. حتى إنّ سوسير الذي يلح على مسألة الاعتباطية، يعود ليقرّ بوجود العلاقة الطبيعية، فيقول:((فالرمز يتميز بكونه ليس دائماً اعتباطياً تاماً ،فهو ليس خاوياً، بل نجد فيه شيئاً طفيفاً من الربط بين الدَّال والمدلول)) [٥].

(١) تفسير الفخر الرازي:١/ ٣١.
(٢) ينظر: أسس السيميائية:٥٩.
(٣) علم اللسان العربي:٣٨٠.
(٤) اللغة :٢٣٥.
(٥) دروس في الالسنية العامة:١١٣.

وعلى الرغم من إقرار سوسير بمبدأ المحاكاة الطبيعية، إلاّ أنَّه يذهب إلى أنَّ هذا المبدأ لايصلح لتفسير جميع كلمات اللغة، بل إنَّه يقتصر على عدد محدود منها، فيقول: ((أمّا الكلمات المحاكية للصوت الحقيقية(مثل gbu –tac, gbu– tic...) فليست قليلة العدد فحسب بل إن اختيارها أمر اعتباطي بمقدار. إذْ أنَّها ليست سوى محاكاة تقريبية ، ومن ثَمَّ شبه تواضعية لبعض الأصوات))[١]، ثم يعلل لرأيه هذا بأنَّ عامل التغير الصوتي بتأثير الزمن سيُفقِد الكلمة العلاقة الطبيعية فتصبح تلك العلاقة غير مسوّغة اعتباطية، فيقول:((وذلك أنَّها بعد دخولها في اللغة يجرها تيار التطور الصوتي والصرفي الخ، إن قليلاً وإن كثيراً... وهذا دليل قاطع ،على كونها قد فقدت بعض الشيء من طابعها الأول، فاكتست طابع الدليل اللغوي بالمعنى العام الذي يختص بكونه غير مبرر[كذا:غير مسوّغ]))[٢].

فسوسير لايدافع عن الاعتباطية ولاينكر الطبيعية ،بل يرى أنَّ الكلمات التي يمكن أنْ نفسرها وفق نظرية المحاكاة((عددها قليل إلى الحد الذي لايمكن عدّها من المحتوى المحوري الحقيقي للعلامات اللغوية))[٣].

كما أنَّ بعضها كما يقول يسبرسن:((يكاد يستحيل علينا أن نثبت المناسبة الطبيعية بين الدلالة والصوت))[٤].

ولاشك أنَّ اللغويين العرب القدماء ولاسيما الخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم، فضلاً عن علماء الأصول والفلسفة ،كان لهم موقف من مسالة العلاقة الطبيعية بين ركني العلامة(الدال والمدلول) وإن بدا متشدداً مما يوحي بميلهم إلى القول بالعلاقة

(١) دروس في الالسنية العامة:١١٣.
(٢) المصدر نفسه:١١٤.
(٣) القضايا الأساسية في علم اللغة:٥٩.
(٤) العلاقة بين الدال والمدلول:٧٦(ضمن دراسات في اللغة– كتاب المورد).

الطبيعية، التي لمسوها من خلال الذوق الصوتي الذي عرفوا به، فوسعوا مسألة دلالة الجرس وتداخل الحروف لتداخل المعاني، والاشتقاق، حتى التمسوا بين الكلمات فروقاً دقيقة مستوحاة من طبيعة أصواتها ،وهو ما عرف بالمحاكاة الطبيعية.

فالألفاظ تكتسب قوتها وضعفها من طبيعة أصواتها فأقاموا جسراً بين اللفظ ومعناها ،ومن ذلك ما سُمِعَ عن الخليل قوله:((صَّر الجندب صريراً، و صرصر الأخطب صرصرة، فكأنهم توهموا في صوت الجندب مدّاً، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجعياً))[١].

وهذا ما تنبه إليه سيبويه وهو يبين تقارب الألفاظ لتقارب المعاني، فقال:((من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني، قولك: النزوان والنقزان ،وإنَّما هذهِ الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع ومثله العَسَلان والرَّتكان... ومثل هذا الغليان لأنَّه زعزعة وتحرُّك ،ومثله الغثيان لأنَّه تجيُّش نفسه وتثور))[٢].

لقد كاد القول بوجود المناسبة الطبيعية يطبق على الدراسات اللغوية القديمة ولاسيما في بيئة المتكلمين من أنصار عبّاد بن سليمان الصميري(ت٢٥٠هـ) الذي كان يرى أنَّ الألفاظ تدل على المعاني بذواتها ويحتج بأنَّه لو لم يكن بين الأسماء والمسميات مناسبة بوجه ما، لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً لأحد طرفي الجائز على الآخر من غير مرجح[٣]. حتى إن بعض من شايعه بالغ فادعى((أنَّه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسُئِلَ ما مسُمّى ((أذغاغ))؟ وهو بالفارسية الحجر، فقال :أجد فيه يبساً شديداً ،وأراه الحجر))[٤]. وقد أخذت هذه الفكرة بُعداً أوسع في

(١) العين:١/٥٦.
(٢) الكتاب:٤/١٤.
(٣) ينظر: المزهر:١/ ٤٧.
(٤) المصدر نفسه:١/ ٤٧.

عقول القدماء، فابن دريد يضع كتاب(الاشتقاق) على أساس هذهِ النظرية ، ويظهر ذلك في تعليله أسماء الأعلام والقبائل في الجزيرة العربية، فيقول:((فهذيل من الهذل وهو الاضطراب، وقضاعة من انقضع الرحل عن أهله إذا بَعُدَ عنهم، أو من قولهم تقضع بطنه إذا أوجعه))[١]. ويفسر ابن دريد تسمية العرب لأبنائهم تفسيراً يقوم على وثوق الصلة بين الأسماء ومدلولاتها، وينقل عن السجستاني ،قوله: ((قيل للعتبي: ما بال العرب سمّت أبناءها بالأسماء المستشنعة، وسمّت عبيدها بالأسماء المستحسنة؟ فقال: لأنَّها سمّت أبناءها لأعدائها ،وسمّت عبيدها لأنفسها))[٢]. وتنال هذهِ النظرية مجالاً أكبر، وتظهر أكثر نضجاً عند ابن جني، الذي يعول عليها كثيراً في تفسير العديد من المسائل وفي مناسبات كثيرة. إذ يحاول جاهداً اثبات العلاقة بين اللفظ والمعنى بطريقة تتعلق بالصوت قوة وضعفاً، وجهراً وهمساً ،من خلال أربعة أبواب في كتابه الخصائص ، وهي:

١-تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني[٣].

٢-الاشتقاق الأكبر[٤]

٣-تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني[٥].

٤-إمساس الألفاظ أشباه المعاني[٦].

---

(١) الاشتقاق:١٧٦.

(٢) المصدر نفسه:٤.

(٣) ينظر: الخصائص:٢/ ٧٤- ٨٧.

(٤) ينظر: الخصائص:٢/ ٨٨- ٩١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه:٢/٩٥- ٩٨.

(٦) ينظر: المصدر نفسه:٢/ ١٠٠- ١١٠.

ويقول معلناً تلك الحقيقة: ((فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئِبٌّ عند عارفيه مأموم. وذلك أنَّهم كثيراً مايجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلون بها و يحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعف مما نستشعره))[١].

وكان ابن جني يدرك القيمة التعبيرية للصوت وقدرته على صبغ الكلمة بما يوحي بهِ، وهذا ما يمكن أن نلمسه من خلال الأمثلة التي عرضها ،فقال:((إن كثيراً من هذهِ اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبَّر بها عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرّطب، وذلك لقوة القاف ،وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف))[٢].

وهذا ما عبّر عنه فندريس، وهو يقيم العلاقة بين الكلمات والأصوات، فيقول: ((ولكن من الحق أنَّ كلمة Fleuve (نهر) معبرة ،لأن الأصوات التي تكونها صالحة تمام الصلاحية لإثارة الصورة التي تمثلها.

فالواقع إن هناك بين الأصوات ومركبات الأصوات فروقاً في القدرة التعبيرية، وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها.. فالكلمة الألمانيةKladderadatsch تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شظايا...))[٣].

وعلى الرغم من ذلك إلاَّ أنَّ ابن جني لم يمل إلى مذهب المعتزلة القائل بضرورة وجود علاقة بين اللفظ والمعنى، فقال: ((هذا غور من العربية لاينتَصف منه، ولايكاد يُحاط بهِ، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غُفلا مسهوا عنه))[٤].

---

(١) المصدر نفسه:١/ ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه :٧١/١.
(٣) اللغة :٢٣٦.
(٤) الخصائص:٩٥/٢.

وهذا يُذكرِّنا بكلام سوسير حين كان يقر بالعلاقة الطبيعية بين ركني العلامة اللغوية (الدال والمدلول)،إلاَّ أنَّه- في الوقت نفسه- يراها محاكاة تقريبية لاتصلح لتفسير جميع كلمات اللغة، بل إنَّها شبه تواضعية لبعض الأصوات[١]. ونجد ابن القيم يقرر هذهِ العلاقة على نحو من المبالغة والمغالاة، فيقول:((والمناسبة الحقيقة معتبرة بين اللفظ والمعنى طولاً ،وقصراً، وخفة وثقلاً وقِلَّة، وحركة وسكوناً، وشدة ولیناً، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه، وإن كان مركباً ركبوا اللفظ، وإن كان طويلاً طوّلوه كالقطنط والعشنق للطويل، فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه، وانظر إلى لفظ بحتر وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق))[٢]، ولا يخلو كلام ابن القيم من المبالغة المفرطة، ولاسيما فيما يتعلق بطول اللفظ لطول معناه، وقصره لقصره. وفي الحقيقة لم يستطع أحد أن ينكر هذا الرابط الذي يجمع بين اللفظ ومعناه ،ولكن مع ذلك قد يكون عسيراً أن نفسر به كل ألفاظ اللغة، وهذا لايغض من قيمة ما توصل إليه العلماء إذْ إنَّ((قيمة نظرية المحاكاة في هذا التراث لاتكمن في ذاتها باعتبارها مدى الرجحان القائم بينها وبين المواقف الأخرى- لها أو عليها- وإنَّما تكمن فيما أفضت إليه من طرافة الرؤية في عقلنة[٣] الظواهر العفوية))[٤].

(١) ينظر: دروس في الالسنية العامة:١١٣.
(٢) بدائع الفوائد:١/ ١٠٨.
(٣) عقلنة:هذه لفظة يمجها السمع
(٤) التفكير اللساني في الحضارة العربية:١٠٦.

الخاتمة

لقد توصل البحث إلى العديد من النتائج والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

١. إن كثيراً من المعطيات الحديثة لفكرة العلامة كانت مما سبق إليها علماء العرب والمعارف الإسلامية أثناء دراستهم للغة، مما جعلنا نعتقد أن علم العلامات علم قديم تناوله العلماء العرب القدماء من قبل ، وحديث باعتبار أن أصوله وأسسه ومنهج البحث فيه قد حددت في مطلع القرن العشرين.

٢. لقد ساهم علماء الأصول والتفسير واللغة والبلاغة في تطوير فكرة العلامة اللغوية، بل أنهم استعملوا المصطلح نفسه الذي استعمله سوسير وبنفس الغرض الذي قصده حتى أن بعضهم كان أدق من سوسير في التفريق بين أقسام العلامة اللغوية كما هو الحال عند الرازي.

٣. ناقش العلماء العرب القدماء طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول فبرز عندهم حقيقتين في تفسير تلك العلاقة هما التفسير الطبيعي والتفسير الاعتباطي ، وانقسموا حيال ذلك إلى فريقين كل فريق يدعم وجهة نظره بحجة وبرهان ،وهو مالم يتوصل إليه الفكر الغربي إلا بعد العرب بقرون.

٤. إنّ سوسير الذي قال بالعلاقة الاعتباطية وعوَّل عليها كثيراً ، إلا إنه لم ينكر العلاقة الطبيعية بين ركني العلامة اللغوية(الدال والمدلول) ، وكان يرى أنَّ كثيرا من الكلمات يصعب حملها على العلاقة الطبيعية وأنَّ هذه العلاقة الأخيرة سرعان ما تتحول إلى اعتباطية بتأثير عامل التطور.

المصادر والمراجع

-أسس السيميائية : دانيال تشاندلر ، ترجمة : طلال وهبة ومراجعة ميشال زكريا ، المنظمة العربية للترجمة ـ مركز الوحدة العربية ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨م .

-الاشتقاق : ابن دريد أبوبكر محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢١هـ)،تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ط٣ .

-البحث عن فردينان دي سوسير ، ميشال أريفية ، ترجمه وقدم له وعلق عليه : أ.د محمد خير محمود البقاعي ، مراجعة نادر سراج ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط١، ٢٠٠٩م .

-البحث اللساني الحديث في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين: د. حيدر محمد جبر ، مكتبة عدنان ـ بغداد ، ط١، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

-بدائع الفوائد : الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية (ت٧٥٢هـ)، تحقيق على بن محمد العمران ، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، دار عالم الفوائد ـ مجمع الفقه الإسلامي ـ جدة .

ـ تاريخ علم اللغة الحديث : جرهاد هلبش ، ترجمه وعلّق عليه د. سعيد حسن بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة ، ط٥ ، ٢٠٠٣م .

-تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفتاح الغيب: الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)،دار الفكر – بيروت ، ط ٣، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

-التفكير اللساني في الحضارة العربية : د. عبدالسلام المسدي ، دار الكتاب الجديد – ليبيا ، ط١، ١٩٨١م

تيارات في السيميائية : د.عادل فاخوري ، دار الطليعة – بيروت ، ط١ ،١٩٩٠م

-الحيوان : أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ـ مصر ، ط٢ ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م

-الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)،تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية ـ مصر .

-دروس في الألسنية العامة : فردينان دي سوسير ، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش – محمد عجينة ، الدار العربية للكتاب – بيروت ١٩٨٥م .

-دلائل الإعجاز في علم المعاني : الإمام عبد القاهر عبدالرحمن الجرجاني ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م .

-الشفاء : ابن سينا ، تحقيق محمد خضيري ، القاهرة ١٩٧٠م .

-العلاقة بين الصوت والدلالة : د. عبدالكريم مجاهد ، ضمن كتاب دراسات في اللغة ، تحرير: طراد الكبيسي ، دار الشؤون الثقافية العامه ، بغداد، ط١ ، ١٩٨٦م .

-العلامة ، تحليل المفهوم وتاريخه : أمبرتو ايكو ، ترجمة :سعيد بنكراد ، راجع النص : سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ـ بيروت ، ط١ ،١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .

-علم الأسلوب والنظرية البنائية : د. صلاح فضل ، دار الكتاب المصري ـ القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١،١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .

-علم اللسان العربي ، فقه اللغة العربية : د. عبدالكريم مجاهد دار أسامة ـ عمان ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٥م .

-العين : أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت .

-الفروق في اللغة : أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)،منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ،ط٤ ،١٩٨٠م .

-القضايا الأساسية في علم اللغة : كلاوس هيشن ، ترجمه وعلق عليه د.سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار ،القاهرة ، ط١ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م

-الكتاب (كتاب سيبويه) : أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر(ت١٨٠هـ)، تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط٣ ،١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م .

-اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة (دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته) : د. حافظ إسماعيل علوي ، دار الكتاب الجديد المتحدة – ليبيا ، ط١ ،٢٠٠٩م.

-اللغة : ج.فندريس ، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

-اللغة واللغويات : جون لوينز ،ترجمة د.محمد العناني ،دار جرير– عمان ،ط١ ،١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

-مباحث في علم اللغة واللسانيات : أ.د رشيد عبدالرحمن العبيدي ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،٢٠٠٢م.

-مدخل إلى المدارس اللسانية: د.السعيد شنوقة ،المكتبة الأزهرية للتراث،مصر،ط١ ،٢٠٠٨م.

-المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلّق عليه : محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار التراث – القاهرة ،ط٣.

-مقاييس اللغة : أحمد بن زكريا أبو الحسن بن فارس ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ،دار الفكر - بيروت.

-مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي : بريجيته بارتشت ، ترجمة وتعليق : د.سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار ـ القاهرة ، ط٢ ،١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

-منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ،ط٣ ، ١٩٨٦م.

-موجز تاريخ علم اللغة في الغرب : ر.هـ. روبنز ،ترجمة د. أحمد عوض ،عالم المعرفة ـ الكويت ، ١٩٩٠م.

المجلات

-في البنيوية والالسنية : د.و.فوكيمان ،ترجمة : د. محمد الحاج صالح الغزي ، مجلة أقلام،ع٩ ،١٩٨٣م.

-علم السيماء في التراث العربي : د.بلقاسم دقة ،مجلة التراث العربي ـ دمشق ،ع٩١، السنة ٢٣ ،١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

-كتاب محاضرات في علم اللغة العام لفرديناند دي سوسير وموقعه في آثار الدارسين د.كمال محمد بشر ،مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ،ج٢٩ ،١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢.